

من المسكوت عنه في منهاج تدبر معاني الهدى في القرآن الكريم

أ.د. محمود توفيق سعد(*)

(المدخل): جاء في بيان النبوة تسمية سورة الفاتحة: (أم القرآن) و(أم الكتاب) فكانت تسمية توقيفية لها دلالاتها:

روى البخاري في كتاب (التفسير) من صحيحه[1] بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

وروى أبو داود في كتاب (الوتر) من سننه [2] بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني».

وهذا يحملُ أهلَ العلم بكتاب الله -عز وجل- على أن يستبصروا ما جمعته هذه السّورة (أمّ القرآن) من معاني الهدى في سائر سور القرآن بحيثُ يضعون أيدينا على كل معنى من معاني (أم القرآن) في سائر سور القرآن؛ ليكونَ في هذا بيانٌ لعظيم وثاقة علاقة كلّ سورة، بلْ كلّ معنى من كلّ سورة بما في سورة (الفاتحة) ولنتبين أي معاني سورة (أم القرآن) أكثر حضورًا في القرآن وأيها أكثر تصريحًا به وأيها أكثر دلالة علَيْه تلويحًا، ومقتضيات ذلك كلّه، وليتجلّى لنا منهاج القرآن في التّصريف البيانيّ للمعنى.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

(الزمر: ٢٣)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

(الإسراء: ٤١)

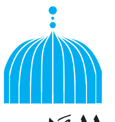
﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

(الإسراء: ٨٩)

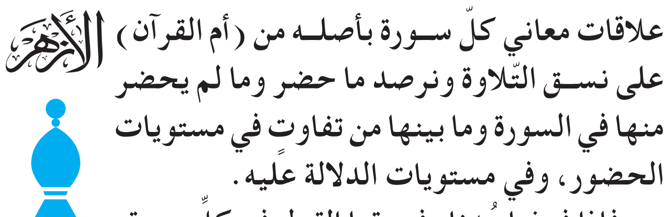
(*) أستاذ بجامعة الأزهر.

(١) (٤٧٠٤).

(٢) (١٤٥٧).







﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ (الكهف: ٥٤)

ولنتبيّن ما بين السّور من تنوع في منهجيّة التَّصريف ومستويات الدَّلالة جلاءً وخفاءً، قربًا وبعدًا، إحكامًا، واحتمالاً، وعلاقة ذلك بسياق القول فيها، ومغزاها (مقصُودها الأعظم).

(التفصيل): يمكننا أن نجعلَ أصول المعنى القرآنيّ المجملة في سورة (أمّ القرآن) على النّحو التّالي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿مَٰلِكِ﴾ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ ﴿ٱهۡدِنَا﴾ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

كلُّ أصلٍ من هذه الأصول المجملة في (أمِّ القرآن) له تفاصيله في سائر سور القرآن.

نَعمد إلى ما يتعلق بمعنى (الحمد لله) من الجمل والآيات والنُّجوم، والمعاقد (الفصول) في كلّ سورة، فنرجعه إليه، ونبيّن مستوَى التَّعلّق، ونوعه وهكذا حتى نفرغ مِن كلّ معنى في كلّ سورة.

نبدأ بسورة (البقرة) إلى آخر سورة (الناس) ثم نستقرئُ المعاني المفصّلة لكلّ أصل في سورة (أمّ القرآن) ثمّ نعمدُ إلى أنْ نجمعَ كلاًّ في فصلٍ، وهكذا حتَّى نفرغَ مِن إلحاق كلّ معنى من معاني السّور المفصلة لما في سورة (أمّ القرآن).

وهكذا يكون لدينا بابان:

الباب الأوّل: استقراء علاقات معاني كلّ سورة بأصله من (أم القرآن) على نسق التّلاوة.

والباب الآخر: استقراء علاقات المعنى الواحد بأصله في (أم القرآن) على مستوى القرآن كلّه.

في البابِ الأوّل يكون القصد إلى استقراء علاقات معاني كلّ سورة بأصله من (أم القرآن) على نسق التّلاوة ونرصد ما حضر وما لم يحضر منها في السورة وما بينها من تفاوتٍ في مستويات الحضور، وفي مستويات الدلالة عليه.

فإذا فرغنا عُدنا، فنسقنا القول في كلِّ سورة، لنتبيّن نسق معاني سورة (أمّ القرآن) ومواقعَ بعضها من بعض في كلّ سورة، ولنرى أرتّبت في سورة (البقرة) مثلاً قريبًا من ترتيبها في (أم الكتاب) أم اختلف الترتيب؟ وما مقتضيات هذا التنوع؟ وهكذا في سائر السّور، لِيتبين لنا خصوصية كلّ سورة، ونجتهد في استبصار مقتضيات ذلك، وعلاقة هذه المقتضيات بسياق القول في السّورة ومقصودها الأعظم.

والباب الآخر: استقراء علاقات المعنى الواحد بأصله في (أم القرآن) على مستوى القرآن كلّه.

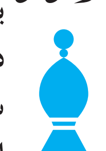
فمن شاء أن يقرأ المعاني الَّتي تنتمي إلى (المالكية) مثلاً في القرآن كلّه أيًّا كان نوع العلاقة ومستوى الدّلالة عَلَيْه كان له ذلك.

فيرجعها إلى قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فمن ملك هذا اليوم لا بدّ أن يكون إلهًا واحدًا لا ينازع، فتدخل تحته كلّ الجمل والآيات والنّجوم الدَّالة على وحدانيته تعالى، وأن يكون عزيزًا، وأن يكون محيطًا علمه بكلّ العالمين، وأن يكون عادلا وأن يكون رحمانَ وأن يكون رحيمًا وأن يكون قيومًا... وهكذا تندرجُ كلّ آية تحمل شيئًا من هذه المعاني تحت قوله:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

وهذا يبين لك أنَّ الآية الواحدة يمكن أن ترتبط بأكثر من أصل من الأصول المكنوزة في سورة (أمّ القرآن) على تنوّع مستويات الارتباط، وعلى تنوّع الدَّلالة ومستوياتها...

وهذا يستوجب كثيرًا من المراجعة والمفاتشة، والتّفرس والتّدسّس، لإبصار



العلاقات الخفية والبعيدة، فإنّ من المعاني ما يكون الإعراب عنه من سبيل (الدَّلالة) بكلّ درجاتها، ومنها ما يكون سبيل الإعراب عنه من سبيل (الإفادة) لا (الدَّلالة)، ولعلماء أصول الفقه وعلم البلاغة وعي بالغٌ بذلك يستعان به في تحقيق ذلك.

من مثل هذا سيتبين لك أن كثيرًا من الآيات لها علاقة وُثقى بكثير من أصول المعنى في (أم الكتاب) على تنوع مستويات التّعلق وأنواعه.

ونحن إذا ما علمنا موقع معاني الهدى من سورة (أم القرآن) في أيّ سورة نحن بصدد تفقه معانيها كان ذلك أعون لنا على أن نعي طابع هذه السّورة من حيثُ ما غلب عليْها من المعاني، وأثر ذلك في منهاج الإبانة والإعراب والإفهام، ونسق المعاني وتناسلها وتلاحظها، فإن لكلّ سورة خصوصيتها، فالله -عز وجل- الَّذي له الخلقُ والأمرُ، لمْ يجعل اثنين في عالم الخلق متطابقين، وإن كانا توءمين، وفي عالم الأمر والقرآن الكريم منه، لم تأت سورة من سوَر القرآن متطابقة مع سورة أخرى في مكوّناتها وتكوينها، وبنائها النصّي.

وهذا يستوجب على منْ يقوم بدراسة سورة من سور القرآن أن يستولد منهج دراستها منها، وألا يستجلب لها منهاجًا اسْتولد من سورة هي سباقها أوْ لَحاقها، فينزله على تلك السّورة، ويخضع تأويله لها لهذا المنهج وهو المستولد من غيرها.

وعلى هذا يمكن أن نقول: إنّ لدينا بعدد سور القرآن عددَ مناهج مدارسة لبناء السّورة القرآنيّة ومنهاج إبانتها وإعرابها وإفهامها.

وهذا من (المسكوت عنه) ومن الفريضة الغائبة، وهو حملٌ ثقيل لا يُمكن لواحدٍ مهما عظم جهده وامتد عمره، وتكاثرت معارفه، وتوقد ذهنه، وافتأد قلبُه وانطلق لسانه أن يوفي سورة واحدة حقَّها من ذلك، فهو عمل مؤسسي يقوم به أعيان من أهل العلم ببيان القرآن، ويبقَى تحت المفاتشة والمراجعة، والتّنقيح والتّكميل والتّهذيب والتّثقيف ما بقيت الحياة.

ومثل هذه المدارسات هي من (المسكوت عنه) بل هو من الفريضة الغائبة التي يجب أن تتجه الدّراسات البلاغية للقرآن خاصّة، والدّراسات القرآنية عامة، وأن ندعَ القولَ فيما كثر القولُ فيه إلى ما سكت عنْه أو قلّ القولُ فِيه. وكذلك تكون الأعمال الجسام.

